

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٠٢)

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٧١) [الأحزاب : ٧٠، ٧١] .

أما بعد:

فقد طَفَّتْ على السطح في الآونة الأخيرة ظاهرة خطيرة قد تودي بالصحة الإسلامية، ولا أكون مبالغاً إن قلت أنها كادت أن تصيبها في مقتل، حتى أنها أثقلت خطاها وألجأتها إلى التوقف في المكان هنيهة من الزمن، وبعدها جدت في السير بدا عليها شيء من الإعياء والوهن، ولئن سألت عن هذه الظاهرة، قلت لك إنها تعالم الأقرام.

فقد ظهر في الساحة بعض الأقرام - ممن ينسبون أنفسهم للعلم والعلم منهم براء - ولقزامتهم لا تكاد العين أن تقع عليهم، فلما شعروا أنهم بعيدون عن مجال الرؤية، تخيروا بين حلولهم الرديئة التي تتماشى مع طبيعة نفوسهم، فلم

يجدوا حلاً أنسب من أن يقفوا على أكتاف جبال من أهل العلم حتى يتسنى لهم الظهور، فخابوا وخاب مسعاهم .

فبدأ هؤلاء الأقرام يتناولون على معظم أهل العلم، فلم يسلم منهم أحدٌ، فرموا كل واحد بتهمة ثن لحملها الجبال، وظنوا بذلك أنهم يصعدون، ولكنهم انحدروا وانحدروا بعدما تركوا بعض أهل العلم مطعون فيهم، فلا هم ارتقوا ولا هم تركوا القافلة تسير^(١) .

وقد تبنا بعض الأفكار وطرحوها على الساحة، وبدأوا يصنّفون الناس على أساسها، ومن أهم القضايا التي راجت في هذه الأيام، قضية حقيقة الإيمان، فنظرت كل فئة إلى هذه القضية من جانب، وظنت أنها على صواب، ومن خالفها رموه بأشنع البلايا، وسبّوه بأقذع سباب، فطائفة رمت الأخرى بالإرغاء، وردت عليها الثانية بالاتهام بالكفير، وانقسم المنتسبون للالتزام تبعاً لذلك من وجهة نظر الرائي إلى فئتين: مرجئة دعاة إلى ترك العمل، أو خوارج يدعون لتكفير مرتكب الكبيرة^(٢) .^(٣)

(١) يقول الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل: إن الميدان الدعوى اليوم يموج بحالة من الخلل الناشئ، عن التضخم الكمي الذي فرض نفسه على حساب التربية النوعية، الأمر الذي أفرز كثيراً من الظواهر المرضية من أخطرها تناول الصغار على الكبار، والجهال على العلماء، وطلبة العلم بعضهم على بعض، حتى إن الواحد منهم ينسى قاموس التأخى، وما أسرع ما يخرج إلى العدوان على إخوانه، ويجردهم من كل فضل، فلا يحلم ولا يعفو ولا يصبر، ولكن يجهل فوق جهل الجاهلينا، بل إن من طلاب « آخر الزمان » من غاص في أحوال السب والشتم والتجريح، وانتدب نفسه للوقية في أئمة كرام اتفقت الأمة على إمامتهم، وهو لا يدرى أنما ذلكم الشيطان يستدرجه إلى وحل العدوان، وهو يحسب أنه يحسن صنعا، ويتوهم أنه يؤدي ما قد وجب عليه شرعاً. فرحم الله من جعل عقله على لسانه رقيباً، وعمله على قوله حسيباً. من كتاب حرمة أهل العلم ص ١٠ .

(٢) يقول الشيخ/ محمد حسين يعقوب في شريط بعنوان « الموقف من يحبه الله » : هناك رسالة للعلامة/ بكر أبو زيد ، ينبغى أن نتعلمها وتكون منهجنا وهي تصنيف الناس بين الظن واليقين .

(٣) كثرت المؤلفات عن فقه الخلاف، ومنها تستطيع أن تعلم من يخالفك، وفيما يخالفك، وما نوع الخلاف في المسألة، ولكن ما الأدب الذي يجب أن يلتزمه المختلفون فيما بينهم، وبخاصة إذا كان الخلاف سائفاً؟، فالكلام فيه عزيز، لذا أرجو أن يقرأ عيننا واحد من أهل العلم الثقات بمصنف جامع في « أدب الخلاف » ، لأن ما وصلنا إليه في هذه الأيام إنما هو ناشئ في المقام الأول عن سوء أدب تولد عن قلة علم صحيح، مع انعدام أو ضعف في التربية .

وبدأت، الكتابات تكثر في هذه الأيام حول هذا الموضوع ولكن معظم هذه الكتابات تخاطب طلاب العلم المتقدمين، وهي في جملتها إما اجتهادات يغلب عليها التعصب للرأى، فهي من باب أصل ثم استدليل، أو ردود على تلکم الاجتهادات، أو محاولات لإثبات الحق والإنصاف في المسألة ولكن بأسلوب قد لا يعيه إلا الفطن اللبيب، وفي غمرة هذا الزخم كنت أكتب في كتاب بعنوان «الأصول الأربعة» يسر الله لي إتمامه عما قريب، فوجدتني بغير قصد أكتب في هذه القضية - رغم أنني لست أهلاً لذلك - لأنها أول أصل من الأصول الأربعة التي تناولتها في هذا الكتاب، فلما نظرتُ إلى ما كتبتُ وجدته مسلكاً وسطاً بين الفئتين، وبعبارة بسيطة تتناسب مع من أراد أن يعرف أصل المسألة بغير عناء، وقد سلكتُ في إثبات أصل حقيقة الإيمان مسلكاً يتوافق مع الفطر انسليمة، اعتمدت فيه أصلاً نفيساً وهو أن أنقل كلام السلف بفهمهم لا بفهم الخلف، وأرجو أن أكون قد وفقتُ في ذلك، وإن كان فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولبيان لزوم التمسك بفهم السلف في مثل هذه القضايا، قال شيخ الإسلام

ابن قيمية: (ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف؛ أن حير قرون هذه الأمة في الأعمال، والأقوال، والاعتقاد، وغيرها من كل فضيلة أن خيرها القرن الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من: علم، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين، وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مُشكّل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم مستنّاً فليستنّ بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحابُ محمد أبرُّ هذه الأمة قلباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم؛ فإنهم

كانوا على الهدى المستقيم، وقال غيره: عليكم بآثار من سلف فإنهم جاءوا بما يكفي وما يشفي، ولم يحدث بعدهم خير كما من لم يعلموه... وما أحسن ما قال الشافعي رحمه الله في رسالته: هم فوقنا في كل علم، وعقل، ودين، وفضل، وكل سبب يُنال به علم، أو يُدرك به هدى، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا (١).

وقال الشيخ الألباني - رحمه الله :-

(إنما تتميز الدعوة السلفية في هذا المجال الذي يُدندن الجميع حول الكتاب والسنة، أنهم يدعون إلى فهم الكتاب والسنة على منهج السلف الصالح، لا يكتفون فقط بدعوة المسلمين إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة، بل يزيدون على ذلك: الرجوع إلى الكتاب والسنة على منهج السلف الصالح) (٢).

وإنما نقلتُ لك هذا الكلام لأن بعض الذين يتشددون بمقولة العمل بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة - في هذه الأيام - لا يرتضي إلا فهمه هو إن كان ممن ينسبون أنفسهم للعلم، أو يفهم شيخه إن كان من المقلدة، فأقول لهذا وذاك: لن يستقيم حالنا، ولن تُكتب لنا النجاة إلا إذا فهمنا ألفاظ السلف بفهم السلف، لأنه قد يتفق اللفظ ولكن شتان بين مفهومه عند السلف ومفهومه عند الخلف.

لذا استخرت الله أن أنتزع هذا الفصل من الكتاب، وأجعله في جزء مستقل بعنوان « حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة »، وأسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثقل به ميزان حسناتي يوم القيامة، وأن يكشف به غمة، ويصرف به كربة ألت بالأمة، وينفع به كاتبه، وقارئه، وناشره، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وهذه مجرد محاولة ممن لم يكن شيئاً مذكوراً، ولكن له قلب كم تحرق شوقاً

(١) مجموع الفتاوى ٤ / ٩٩ .

(٢) من تعليقه على محاضرة للشيخ / محمد عيد عباسي عن الدعوة السلفية والمطبوعة باسم الدعوة السلفية وموقفها من الحركات الأخرى ص ٣٣ - ٣٤ .

لاتفاق به يُوحَد الصف، ويلتئم به الجرح، وخوفاً من خلاف كله شر، وبخاصة إذا كان المختلفون يجهلون علام يختلفون .

فلکم منه غنمه، وعلىٰ منه غُرمه، والله المستعان وعليه التُّكْلان، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

وفي خاتمة هذه المقدمة ، يجدر أن أشير إلى أنه كان من المقرر ألا يُطبع هذا الجزء إلا بعد أن أعرضه على جملة من أهل العلم الثقات، ولكن لاح في الأفق سببان دفعاني لتعجيل طبعه :

أما الأول: ما ظهر بسبب هذه القضية من التناحر والتدابير والتهارج والقطيعة والوقیعة وانشقاق الصف على المستوى العام للدعوة، ثم تفادح فضرر بجذوره حتى وصل إلى الحواری والأزقة .

وأما الثاني: فهو تشاغل بعض أهل العلم عن النظر في مثل هذه الأجزاء التي يتقدم بها إليهم بعض الأصاغر مثلي رغم خطورة الموضوع، وشناعة ما يترتب عليه، ولا أقول ذلك رجماً بالغيب ولكن من خلال من عرضته عليهم، وهذا نذير شر ، فله أشكو الوائدين قضيتي، الناسجين بصمتهم أكفاني ، وبذا يكون حق الرد والتعليق مكفول للجميع على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم . والله من وراء القصد وهو به عليم .

وكتبه

سعد سعيد أحمد عبده

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين



حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ

وتحتوي على سبعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الإيمان

المبحث الثاني : مراحل الإيمان وخطواته

المبحث الثالث : من لم يعمل خيراً قط

المبحث الرابع : الإيمان يزيد وينقص

المبحث الخامس : الإيمان يقوى ويضعف

المبحث السادس : العلاقة بين قوة الإيمان وزيادته

وضعف الإيمان ونقصه

المبحث السابع : خلاصة القول في المسألة